الإبدالُ بينَ حروفِ الجرِّ في ضوء المُتَشَابه اللفظي القرآني

Substitution between prepositions In light of the Quranic verbal similarity

م.د. محمّد علي عبد الله العنبكي[*]

M.D. Muhammad Ali Abdullah Al-Anbaki

mmma86763@jmail.com
07706336680

المُلَّخَص

إنَّ الهـدف المرجـو مـن هذا البحث بيان مدى أثر حروف الجرّ فـي معنى النّص القرآني، فتضمّن البحث الأسـئلة الآتية: ما أثر القرينة في تحديد معنى حرف الجرّ؟ وما مواضع الإبدال بين حروف الجر في إطار التشابه اللفظي؟ وهل يتغير الحكم حسب معنى حرف الجرّ؟ فيدرس هذا البحث الموسوم بـ ((**الإبدالُ بين حروف الجرِ في ضوء المُتَشابه اللفظي القرآني**)) التبادل بين حروف الجرِ عن طريق المغايرة فيها عبر السـيّاق القرآني؛ وذلـك بمجيء بعض الأفعال متعدياً بحرف ثم التَّحول عنه إلى حرفٍ آخر في السياق نفسه.

وليس الموضوع هنا ذكر تعدّد معاني حروف الجرِ وحذفها؛ بل هو الانتقال بالتعبير من حرفٍ إلى حرف آخر في إطارٍ من التشابه بين الآيتين، فقد يكون الفعل واحداً في الآيتين والحرف مختلف، وقد يكون المجرور واحداً والحرف مختلف. لا سيَّما أنَّ الخطاب القرآني اتَّسم بالتنوع في التعبير والمزاوجة بين الأساليب، والإبدال بين الحروف والكلمات بشكل لا نظير له، وممَّا يؤكد ذلك بلاغة الحرف القرآني في موضعه الذي ورد فيه، سواء أتعلق الأمر بالسّياق اللغوي القبلي والبعدي أم سياق السورة أو سياق القرآن كلِّه؛ ولكثرته وسعته اخترت قسماً منها.

الكلمات المفتاحية: حروف الجرّ، الإبدال، المتشابه اللفظي.

---

[*] **المديرية العامة لتربية الرصافة الأولى**

المقدِّمـــــــة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرف الخلق أجمعين، أبي القاسم محمَّدٍ وعلى أهل بيته الطاهرين، وأصحابه المنتَجَبين. أمَّا بعدُ:

فقد اتَّسم الخطاب القرآني بالتنوع في التعبير والمزاوجة بين الأساليب وتماسكها؛ والإبدال بين الحروف والكلمات بشكل لا نظير له حتّى تصل إلى مستوى الفصاحة والبلاغة؛ وممَّا يؤكد ذلك بلاغة الحرف القرآني في موضعه الذي ورد فيه، سواء أتعلق الأمر بالسّياق اللغوي القبلي والبعدي أم سياق السورة أو سياق القرآن كلِّه، ويدرس البحث التبادل بين حروف الجرّ من خلال المغايرة فيها عبر السِّياق القرآني؛ وذلك بمجيء بعض الأفعال متعدياً بحرف ثمَّ التَّحول عنه إلى حرفٍ آخر في السِّياق نفسه؛ لذلك انبثق عنوان هذا البحث الموسوم بـ **((الإبدالُ بين حروف الجرّ في ضوء المُتَشابه اللفظي القرآني))**.

وليس الموضوع هنا ذكر تعدّد معاني حروف الجرّ وحذفها، أو هو الإبدال المتعلِّق بالمسائل الصَّرفية المرتبطة بتغيرات حروف الكلمة إبدالاً أو إعلالاً؛ بل هو الانتقال بالتعبير من حرفٍ إلى حرف آخر في إطارٍ من التشابه بين الآيتين، فقد يكون الفعل واحداً في الآيتين والحرف مختلف، وقد يكون المجرور واحداً والحرف مختلف.

ممّا يدعو ذلك إلى التَّدبر لإدراك ما وراء هذا التبادل والتغير في حروف الجرّ من مقاصد ودلالات عبر نماذج قرآنية يتم فيها رصد المتشابهات في هذا المجال مدركين أثر تغيُّر الحرف في المعنى؛ ولكثرته وسعته اخترت قسماً منها لتكون خطة البحث على النَّحو الآتي:

أولاً: الإبدال بين حرفي الجرِّ (إلى – وعلى).

ثانياً: الإبدال بين حرفي الجرِّ (اللام – وإلى).

ثالثاً: الإبدال بين حرفي الجرِّ (الباء – واللام).

رابعاً: الإبدال بين حرفي الجرّ (عن – ومن).

خامساً: الإبدال بين حرفي الجرِّ (اللام – وعلى).

سادساً: الإبدال بين حرفي الجرِّ (من – وفي).

Abstract

The Qur'anic discourse was characterized by diversity in expression and pairing between styles, and the exchange between letters and words in an unparalleled manner. This research is tagged with (Replacement between prepositions: in the light of the Qur'anic verbal similarity)) The exchange between prepositions through the contrast in them through the Qur'anic context; This is due to the coming of some verbs transitive with a letter and then switching from it to another letter in the same.

The topic here is not mentioning the multiplicity of meanings of prepositions and their deletion; Rather, it is the transition of the expression from one letter to another letter within the framework of the similarity between the two verses, so the verb may be the same in the two verses and the letter is different, or the preposition may be the same and the letter is different; Because of its abundance and capacity, I chose a section of it so that the research plan is as follows: First: Substitution between the prepositional letters (to – and on) Secondly: Substitution between the prepositional letters (lam – and to) Thirdly: Substitution between the prepositional letters (baa – and lam) Fourth: Substitution between the two letters The preposition (about - and from) Fifth: Substitution between the two letters of Jaz (lam - and on) Sixth: Substitution between the two letters of Jaz (from - and in)
Keywords: prepositions, interchangeapie, uerbaicognate.

التَّمهيد

الإبدال والمتَشابه اللفظي: المصطلح والمفهوم

أولاً: الإبدال في اللغة والاصطلاح

الإبدالُ لغةً:

عرَّفه ابن فارس (ت٣٩٥هـ) وابن منظور (ت٧١١ه) بأنَّه هو قيام الشَّيء مقام الشَّيء الذاهب، يقال: هذا بدلُ الشَّيء وبديلُه، ويقولون: بدَّلْتُ الشَّيء إذا غيَّرتَه وإنْ لم تأتِ له ببدلٍ، والأصل في التبديل تغيير الشَّيء عن حاله، والأصل في الإبدال جعل شيء مكان آخر، واستبدل الشَّيء بغيره وتبدَّله به إذا أخذه مكانه **(فارس، مقاييس اللغة، ١٩٧٩، صفحة ١/ ٢١٠).**

وقال السَّمين الحلبيّ (ت٧٥٦ه): « البدلُ والإبدالُ والتَّبديلُ والاستبدالُ: جعل شيءٍ مكان آخرَ، وهو أعمُّ من العِوضِ، فإنَّ العوضَ هو أن يصيرَ لك الثاني بإعطاء الأول.

والتبديل: تغيير الشَّيء وإن كان بغير عوض « **(الحلبي، ١٩٩٤م، صفحة ١/ ١٧٦)** . وقد وردت شواهد قرآنية نحو قوله تعالى:) **فَبَدَّلَ الَّذينَ ظَلَموا قَوْلاً غَيْرَ الَّذي قِيْلَ لَهُمْ** ([البقرة:٥٩]. ومثله قوله تعالى:) **وإذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ** ([النحل:١٠١].

ويتضح من استعمالات القرآن الكريم لمادة (بَدَلَ) الدَّلالة على مطلق التغيير والتَّحويل، سواء أكان هذا التغيير حسياً أم معنوياً، وسواء أكان في الصورة أم في الجوهر، وله استعمال واسع في مجالي الصرف، والدراسات القرآنية، ولاسيَّما في مجال المتشابه اللفظي وهو موضوع - بحثنا هذا - **(محمد، ٢٠١٥م، صفحة ٢٢).**

الإبدالُ اصطلاحاً:

اصطلح الشاطبي على تعريفه بأنَّه: « هو في الأصل بمعنى تنحية الشَّيء وجعل غيره في موضعه بدلاً منه « **(الشاطبي، ٢٠٠٧م، صفحة ٩/ ١)**. وقال ابن فارس: « ومن سنن العرب: إبدالُ الحروف وإقامة بعضها مقام بعض، ويقولون: (مَدَحَه ومَدَهَه) و(فرسٌ رِفلٌّ ورِفنٌّ) وهو كثير مشهور قد ألَّف فيه العلماء « **(فارس ا.، ١٩٩٧م، صفحة ١٥٤)**، وعند الجرجانيّ (ت٨١٦ه): « هو أن يُجْعل حرف موضع حرف آخر لدفع الثِّقل « **(الجرجاني، صفحة / ٩).**

ثانياً: المُتَشابه في اللغة والاصطلاح

المتشابه لغةً:

ذكر اللغويون أصحاب المعجمات أنَّ التَّشابه في اللغة كلمة تدلُّ على المماثلة والمشاكلة بين الشيئين، يقال: تشابها واشتبها، إذا أشبه كل منهما الآخر حتَّى التبسا، وأشبَه الشَّيءُ الشَّيءَ: ماثله، والمشتبهات من الأمور: المشكلات، والمتشابهات: المتَماثلات (منظور، صفحة ٣/ ٥٠٣). وعرَّفه الزركشيّ (ت٧٩٤هـ) بقوله: « وأمَّا المتشابه فأصله أن يشتبه اللفظ في الظاهر مع اختلاف المعاني،

نحـو قولـه تعالى في وصف ثمر الجنَّة] وأُتُوا بِهِ مُتَشَـابِهَاً ([البقـرة:٢٥] أي: متَّفِق المناظر مختلف الطّعوم « (الزركشي، ١٩٨٨، صفحة ٢/ ٦٩). ويبدو أنَّ المتشابه عند أهل اللغة يطلق على ما تماثل من الأشـياء وأشـبه بعضها بعضاً، وعلى ما يلتبس من الأمور وأشـكل عليها (الإسـكافي، ١٩٩٠م، صفحة ١/ ٤٨).

المتشابه اصطلاحاً:

إنَّ أوَّل من حدَّه وجعل له مصطلحاً محدداً الزركشيّ بقوله: « وهو إيراد القصة الواحدة في صُوَرٍ شـتَّى وفواصل مختلفة، ويكثر في إيراد القصص والأنباء « (الزركشـي، ١٩٨٨، صفحة ١/ ١١٢). وأضـاف السـيوطيّ (ت٩١١ه) هـو أن يأتـي في موضع واحد مقدمـاً وفي آخر مؤخراً (السـيوطي، ١٩٨٨م، صفحة ١ / ٦٦).

وهو عند السَّـمين الحلبيّ: « ما لم يتضمَّنْ حكماً بل تضمَّنَ قصصاً وأخباراً « (الحلبي، ١٩٩٤م، صفحة ٢ / ٢٤٨) . وعرَّفه باحث معاصر بأنَّه: إبدال حرف بحرف آخر، أو كلمة بكلمة أخرى ونحو ذلـك، مع اتفـاق المعنى العام لغرض بلاغي (الشـشـري، ٢٠٠١م، صفحة / ٨ ماجسـتير). ومن ذلك اسـتعمال حروف الجرّ، فقد يعدل من حرف إلى آخر، أو يسـتعمل حرفاً مرّة ثم يستعمل حرفاً آخر في موضع يبدو شبيهاً بالأول (موسى، ١٩٨٧م، صفحة / ٢٠٣).

مواضع الإبدال بين حروف الجرّ في الآيات القرآنية المتَشابهة

أولاً: الإبدال بين حرفي الجرّ (إلى ــ وعلى)

قـد تقـع بعض الحروف موقع بعضها ومن ذلك التبادل فـي قوله تعالى: } قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلى إبْرَاهِيْمَ وإسْـمَاعِيْلَ... { [البقرة:١٣٦]، وقوله تعالى:} قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ على إبْرَاهِيْمَ وَإسْمَاعِيْلَ... {[آل عمران:٨٤].

إنَّ الأصـل فـي (إلـى) أنْ تكـون لانتهاء الغايـة دون تخصيص الجهـة التي وصل منها الشَّـيء (الزجَّاجـي، ١٩٨٦، صفحـة / ٦٥)،أمَّا الحـرف (على) فيفيد الوصول من جهة واحدة (الاسـتعلاء) وسـيبويه (ت١٨٠ه) لم يذكر له سـوى هذا المعنى فيقول: « أما (على) فاسـتعلاء الشَّيء « (سيبويه، ١٩٨٣، صفحة ٤/ ٢٣٠).

وهذا عند الزركشيّ هو إبدال حرف بحرف غيره (الزركشي، ١٩٨٨، صفحة ١/ ١٢٨)، ويوجه الخطيـب الإسـكافيّ (ت٤٢٠ه) اختلاف حرفـي الجرّ في الآيتين أنَّ الحرف (إلى) فـي آية البقرة يدلّ على الانتهاء إلى الشَّيء، إذ إنَّ الكتب السماوية منتهية إلى الأنبياء وإلى أممهم؛ فالخطاب في هذه الآية للأمة لقوله تعالى: (قولوا).

أمَّـا آية آل عمـران فالخطاب فيها للنبي (r)، فالحرف (على) يختص بالفوقية وهذا خاص بالأنبياء وحدهم، ولهذا اسـتعمل الحرف (على) الذي يفيد الاسـتعلاء (الإسـكافي، ١٩٩٠م، صفحة ١ / ٢٩٩-

٣٠٠). ووافقه على هذا المعنى كلّ من الكرماني (ت٥٠٥ه) والغرناطي (ت٧٠٨ه) وابن جماعة (ت٧٣٣ه) والسيوطيّ (الكرماني و الأنصاري، د.ت، صفحة / ٢٥).

ورجَّح السيوطي ذلك أنَّ الحرف (إلى) هو خطاب موَّجه للمسلمين، أمَّا الحرف (على) فهو خطاب موجه للنبي (r)، و(إلى) ينتهي به من كل جهة و (على) لا ينتهي به إلا من جهة واحدة وهي العلو؛ ولذلك أتى النبي من جهة العلوّ خاصَّة فناسب قوله (علينا)؛ ولهذا أكثر ما جاء في جهة النبي بـ (على)، وأكثر ما جاء في جهة الأمة بـ (إلى) (السيوطي، ١٩٨٨م، صفحة ١/ ٧٠).

وردَّ الزمخشريّ (ت٥٣٨ه) ما ذهب إليه الخطيب الإسكافي والسيوطي قائلاً: « ومَنْ قال: إنَّما قيل (علينا) لقوله (قل)، و(إلينا) لقوله (قولوا) تفرقة بين الرسول والمؤمنين؛ لأنَّ الرسول يأتيه الوحي على طريق الاستعلاء، ويأتيهم على وجه الانتهاء فقد تعسَّف؛ ألا ترى إلى قوله: (مَا أُنـزِلَ إِلَيْكَ) [المائدة:٦٨]، و(أَنْزلنَا إِلَيْكَ الكتَاب) [النساء:١٠٥] وإلى قوله: (آمَنُوا بِالَّذي أُنْزِلَ على الَّذيْنَ آمنُوا) « (الزَّمخشري و آخرون، ١٩٨٦م، صفحة ١/ ٥٧٧)، وهو اعتراض وجيه وإن كان يمكن الرَّد عليه بأنَّ هاتين الآيتين قد خرجتا عن الحقيقة إلى المجاز (الزيد، ٢٠١٠م، صفحة / ٢٠٧ - ٢٠٨).

وقد فسرَّ جمعٌ من المفسرين اختلاف حرفي الجرِّ في الآيتين بتفسيرات سواء من حيث تغيير الحرفين مكان الآخر أم من حيث السيِّاق في الآيتين، فقد فسَّر ذلك ابن عاشور بقوله: «وعدَّى فعل (أنزل) هنا بحرف (على) باعتبار أنَّ الإنزال يقتضي علوّاً فوصول الشيء المنزَّل وصول استعلاء، وعدَّى في آية البقرة بحرف (إلى) باعتبار أنَّ الإنزال يتضمن الوصول وهو يتعدّى بحرف (إلى)؛ لأنَّ المخاطب هو الملأ العام وهو أقلّ مرتبة من النبي (r)" (عاشور، ١٨٨٤م، صفحة ٣/ ٣٠٢).

وسبقه إلى هذا التَّوجيه الزمخشريّ بقوله: « فإن قلت: لم عدّى (أنزل) في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً؛ لأنَّ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر « (الزَّمخشري و آخرون، ١٩٨٦م، صفحة ١/ ٥٧٧)، وأيَّده الأنصاري بقوله إنَّ (إلى) للانتهاء؛ لأنَّ الكتب منتهية إلى المؤمنين بعد نزولها على الأنبياء والخطاب هنا للمؤمنين، أمَّا (على) فهي للاستعلاء وهو مختص بالأنبياء فناسب ذلك (الأنصاري، ١٩٨٣، صفحة / ٤١).

وأثبته باحث معاصر بأنَّ (إلى) نابت مناب (على) وأدَّت وظيفتها، وهذا نجده عند علماء الأسلوب القرآني الذي يُعنى كثيراً بالسياقات وتغيِّر الدَّلالات على ضوء تغيِّر الحروف (عبود، ٢٠٠٣م، صفحة / ٢٢٤).

وخلاصة القول في هذه الآراء أنَّ منهم من نظر إلى السيِّاق الذي وردت فيه الآيتان، ونظر إلى التوافق بين توجيه الخطاب ومعنى حرف الجرّ الذي ورد فيه كما فعل الإسكافي ومن وافقه على رأيه، ومنهم من نظر إلى معنى النزول ومعنى الوصول والانتهاء، وأنَّه ليس هناك خلاف إلا من ناحية التفنن في التعبير (توامة، ٢٠١٥، صفحة / ٨٢) . وربّما هذا يكون جواباً للسؤال الذي يقول: لماذا رُوعي في سورة البقرة التعدية بـ(إلى)، وفي سورة آل عمران التعدية بـ(على)؟

ومن مواضع الإبدال والفرق بين (إلى) و(على)، وذلك في آيتين من سورة الزمر، قال تعالى: }إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ فَاعبُدْ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيْنَ{ [الزمر:٢]، وقوله تعالى: }إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالحَق فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ{ [الزمر:٤١] ومعناه: لم ننزله باطلاً بغير غرض، وقيل في معناه: بالأمر الحق، أي: بالدين الصحيح (الطبرسي، ٢٠٠٦م، صفحة ٨ / ٢٩٢).

فقد لاحظ الإسكافي أنَّ أكثر المواضع التي جاء فيها إنزال القرآن على النبيّ (r) قد عدّي بالحرف (على)، أمَّا إنزاله على النّاس فعدي بالحرف (إلى)، وهذا ملحظ لفظي، أمَّا الملحظ المعنوي فيرى أنَّ كلّ موضع عُدِّيَ بالحرف (إلى) فإنَّه يفيد تشديد التكليف عليه، أمَّا التعدية بالحرف (على) فيفيد التشريف له والتخفيف عنه (الإسكافي، ١٩٩٠م، صفحة ١/ ١١٠٦-١١٠٧).

إذ ذكر ذلك ابن جماعة معللاً: « حيث قصد تعميمه وتبليغه وانتهاؤه إلى عامة الأمة قال (إليك)، وحيث قصد تشريفه وتخصيصه به قيل (عليك)؛ وذلك لأنَّ (على) مشعر بالعلوِّ فناسب أوّل من جاءه من العلوّ وهو النبيّ (r)، و(إلى) مشعرة بالنهاية فناسب ما قصد به هو وأمته ” (جماعة، السيوطيّ، و الأنصاريّ، ١٩٩٠م، صفحة / ٣١٢ - ٣١٣).

ووافقه على هذا الترجيح الكرماني، إذ يقول: «أنَّ كل موضع خاطب الله تعالى فيه النبيّ (r) بقوله: (إنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) ففيه تكليف، وإذا خاطبه بقوله: (إنَّا أنزلنَاه عَلَيْكَ) ففيه تخفيف. واعتبرنا بما في هذه السورة فالذي في أوّل السورة (إليك)؛ فكلفه بالإخلاص في العبادة، والذي في آخرها (عليك) فختم الآية بقوله: (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيْلٍ) أي: لست بمسؤول عنهم فخفف عنه ذلك». (الكرمانيّ، صفحة / ٢١٧).

أمَّا الغرناطي فتعليله قريب من الموضع السابق، فيرى: « أنَّ (إليك) و(عليك) هنا مترادفتان على معنى واحد من معنى الخطاب، فتارة يراعى وصول المنزل بواسطة المَلَك، وتارة يراعى وصوله من عند - الله سبحانه - من غير واسطة، فإذا روعي هذا قيل (عليك)، وإذا روعي الأوّل قيل (إليك) « (الغرناطي، ١٩٨٣م ، صفحة ٢/ ٤٢٤).

ثانياً: الإبدال بين حرفي الجرِ (اللام – وإلى)

جاء ذلك في قوله تعالى: } **وَيُوْلِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى** { [لقمان:٢٩]، وفي موضع آخر قال تعالى: } **وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى** [[الزمر:٥].

يرى الخطيب الإسكافي أنَّ (اللام) في قوله (يجري لأجل) يقصد بها بلوغ الأجل وإدراكه، أمَّا (إلى) في قوله (يجري إلى أجل) فتدلّ على الانتهاء، ومعناه: لا يزال جارياً حتَّى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له، ثم ذكر أنَّ آية لقمان وُضعت بين آيتين دلتا على غاية ما ينتهي إليه الخلق؛ لذلك ناسب هذا المجيء بالحرف (إلى) الدَّال على الانتهاء **(جماعة، السيوطيّ، و الأنصاريّ، ١٩٩٠م، صفحة ٣ / ١٠٥٦ - ١٠٥٧)**.

أمَّا توجيه الكرماني فيقول: «إنَّ (إلى) متصل بآخر الكلام، ودال على الانتهاء، و(اللام) متصل

بأول الكلام ودال على الصلة والسلام» **(الكرماني و الأنصاري، د.ت، صفحة / ١٤٧)**. وعلل الغرناطي أنَّ آية لقمان لما بُنيت على الطول بحسب ما اقتضاه مقصودها ناسبها الأحرف الأطول وهو (إلى) فانجرّ الأجل بها، أمَّا آية الزمر فبُنيت على الإيجاز فناسبها المجيء بحرف (اللام) اكتفاء بما يُحرز المعنى المقصود ويناسب التركيب **(الغرناطي، ١٩٨٣م ، صفحة ٢/ ٤٠٢)**.

أمَّا تفسير الزمخشريَ لهذه الآية فكان هو الأكثر وضوحاً عندما نسب معنى الانتهاء والاختصاص لهما، فضلاً عن ذلك كان موافقاً للخطيب الإسكافي في تفسيره هذا مراعياً في ذلك الجانب المعنوي، إذ يقول: «فإن قلت: (**يَجْرِي لأجَلٍ مُّسَمًّى**)، و(**ويَجْرِي إلى أجَلٍ مُّسَمًّى**) أهو من تعاقب الحرفين ؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيِّق العطن، ولكن المعنيين: أعني الانتهاء والاختصاص كل واحد منهما ملائم لصحة الغرض؛ لأنَّ قولك: (**يَجْرِي إلى أجَلٍ مُّسَمًّى**) معناه: يبلغه وينتهي إليه، وقولك: (**يَجْرِي لأجَلٍ مُّسَمًّى**): تريد يجري لإدراك أجل مسمى، فكلا المعنيين غير ناب به موضعه» **(الزَّمخشري و آخرون، ١٩٨٦م، صفحة ٥ / ٢٢ ـ ٢٣)**.

وهذا ما قال به أبو حيَّان (ت٧٤٥هـ) في الفرق بين قوله (إلى أجل) يدلّ على الانتهاء، أي: يبلغه وينتهي إليه، وفي الزمر (لأجل) يدلّ على الاختصاص بجعل الجري مختصَّاً بإدراك أجل مسمى، فكلا المعنيين متناسب لجريهما؛ لذلك عُدّي بهما **(الأندلسيّ، ١٩٩٢، صفحة ٧ / ١٨٨)**.

وكان ابن عاشور (ت١٣٩٣) قد توّسط في المسألة فأكَّد ما ذهب إليه الزمخشريّ « الذي يرمي إلى تحقيق الفرق بين معاني الحروف وهو مما نميل إليه، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر كثرة ورود اللام في مقام معنى الانتهاء كثرةً جعلت استعارة حرف التخصيص لمعنى الانتهاء «**(عاشور، ١٨٨٤م، صفحة ٢٢ / ٢٨١)**. وأمَّا د. السامرائي فقد وجه المسألة قائلاً: «والفرق بينهما أنَّ ما ورد باللام يفيد التعليل بمعنى: كل يجري لبلوغ الأجل، أي: كل يجري لهذه الغاية، كما تقول: كلهم يجري لوصول الهدف وبلوغه» **(السامرائيّ، ٢٠٠٦م ، صفحة / ٢٠٩)**.

ويبدو من ذلك أنَّ من معاني (اللام) الاختصاص، وهو معنى لا يفارقها وقد يسحبه إلى معانٍ أُخر، وسائر المعاني المذكورة راجعة إلى الاختصاص **(المراديّ، ١٩٩٢م، صفحة / ١٠٩)**، وهو ما يراه الزمخشريَ وأخذ به أبو حيَّان واتَّفق مع رأي الإسكافي؛ لأنَّه راعى الجانب النَّحوي والمعنوي لمعنى (اللام) وهو الاختصاص، والأصل في (إلى) أن تكون لانتهاء الغاية؛ لأنَّك تقول: جئت إليك، أي: نهاية مجيئي إليك **(السامرائيّ، ٢٠٠٠م ، صفحة ٣/ ١٦)**.

ومن آيات المتشابه اللفظي ورود الإخبار بوسوسة الشيطان في الأعراف وعدل في سورة طه من (لهما) إلى (إليه) وذلك في قوله تعالى:]**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا**[[الأعراف:٢٠]، وقوله تعالى:]**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى**[[طه:١٢٠]. يرى الزمخشريّ أنَّ معنى (**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ**) تعني حصول الوسوسة لأجل آدم وزوجه، ومعنى (فوسوس إليه) ألقاها إليه بقصد إنهاء الوسوسة، فتقول: موسوس

له وموسوس إليه (**الزَّمخشري و آخرون، ١٩٨٦م، صفحة ٢/ ٤٣١**).

وذكر أبو حيَّان أنَّ سبب التبادل بين حرفي (اللام) و(إلى) بقوله: «وتعدّى (وسوس) هنا بـ(إلى) وفي الأعراف بـ(اللام)، فالتعدي بـ(إلى) معناه أنهى الوسوسة إليه، والتعدّي بـ(لام) الجرِ قيل معناه: لأجله، ولمَّا وسوس إليه ناداه باسمه ليكون أقبل عليه وأمكن للاستماع، ثم عرض عليه ما يلقى بقوله (هل أدلك) على سبيل الاستفهام الذي يشعر بالنُّصح ويؤثر قبول من يخاطبه كقول موسى]**هَلْ لكَ إلى أنْ تَزَّكى**[[النازعات:١٨]، وهو عرض فيه مناصحة، وكان آدم قد رغبه الله تعالى في دوام الرَّاحة، وانتظام المعيشة بقوله (فلا يخرجنكما)، ورغبه إبليس في دوام الرَّاحة بقوله (هل أدلك) فجاءه إبليس من الجهة التي رغبه الله فيها، وفي الأعراف]**مَا نَهاكُمَا رَبُكُمَا عَنْ هذه الشَّجَرة**[[الأعراف:٢٠] وهنا (هل أدلك) والجمع بينهما أنَّ قوله (هل أدلك) يكون سابقاً على قوله (ما نهاكما) لما رأى إصغاءه وميله إلى ما عرض عليه انتقل إلى الإخبار والحصر « (**الأندلسيّ، ١٩٩٢، صفحة ٤/ ٢٧٩ ، ٦/ ٢٦٤**).

فأبو حيَّان هنا يراعي الجانب النَّحوي عند توجيهه للفرق بين الآيتين، فلم يكتفِ بذكر معنى الحرفين والفرق بينهما، بل اعتمد على السياق النَّحوي في اختلاف الحرف في كل آية، فإنَّه لمَّا وسوس إليه الشيطان ناداه باسمه، فـ(إلى) تفيد انتهاء الغاية، أي أنَّه كان في منتهى القرب منه فناداه باسمه وعبرَّ بقوله (هل أدلك)، فجاء على سبيل النصح، وفي الآية الأخرى انتقل إلى الإخبار والحصر (**القريشي، ١٤٣٣هـ، صفحة / ٤٥ ـ ٤٦**)؛ ولذلك فإنَّه استعمل الحرف (إلى) الدال على انتهاء الغاية، أمَّا اللام فللاختصاص (**المراديّ، ١٩٩٢م، صفحة/ ٩٧**).

والملاحظ أنَّ كتب المتشابه اللفظي التي سبقت أبا حيان وغيره لم تتطرق للتشابه في هاتين الآيتين إلاّ السيوطي وهو من المتأخرين فنجد له إشارات في بيان الفرق بين الآيتين، فذكر أنَّ قوله (فوسوس لهما) أي: فعل الوسوسة لأجلهما، وأمَّا قوله (فوسوس إليه) فمعناه: ألقى الوسوسة إليه وهو بهذا يكون متابعاً للزمخشريّ وأبي حيّان في التوجيه نفسه (**السيوطيّ، ١٩٩٤م، صفحة ١/ ٩٨٥**).

أمَّا المفسرون المتأخرون (**البيضاوي و آخرون، ١٩٨٨م، صفحة ٣/ ٨**) فكانت لهم وقفة تجاه تفسير الآيتين وإنْ لم تختلف كثيراً عن سابقيهم، ومنهم ابن عاشور الذي يقول: «وتعدية فعل (وسوس) هنا بحرف (إلى) وبـ (اللام) في الأعراف]**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ**[باعتبار كيفية تعليق المجرور بذلك الفعل في قصد المتكلّم؛ فإنَّه فعل قاصر لا غنى له عن التعدية بالحرف، فتعديته بحرف (إلى) هنا باعتبار انتهاء الوسوسة إلى آدم وبلوغها إيَّاه، وتعديته باللام في الأعراف باعتبار أن الوسوسة كانت لأجلهما" (**عاشور، ١٨٨٤م، صفحة ١٦/ ٣٢٥**) .

ويبدو أنَّ القياس بحرف اللام والانتقال بالتعبير بالحرف (إلى) كانت له هذه الدلالات الجديدة، وهذا يؤكد ما ذهب إليه علم الدلالة في أنَّها قابلة للتعدد والاحتمال، وإنَّها تتحد من خلال التراكيب المتنوعة وهو ما يعبَّر عنه بالتنقل بين (اللام وإلى) (**عبود، ٢٠٠٣م، صفحة / ٢٢٠**).

ثالثاً: الإبدال بين (الباء ــ واللام)

ومن مواضع إبدال حرف بحرف غيره (الزركشي، ١٩٨٨، صفحة ١/ ١٢٩) ما جاء في قوله تعالى:]قَالَ فِرْعَونُ آمَنْتُم بِهِ قَبْلَ أنْ آذَنَ لَكُمْ{ [الأعراف:١٢٣]، وقوله تعالى:]قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أنْ آذَنَ لَكُمْ[[طه:٧١]، فقد تأتي الكلمة وهي تدلّ على معانٍ عدّة ثمَّ يتحكم حرف التعدية في اختيار بعض هذه المعاني، فمن ذلك دلالة لفظ الإيمان على معنى التَّصديق وعلى معنى الانقياد والإذعان، فإذا عدّى بالباء دلَّ على التصديق وإذا عدّى باللام انتقل إلى معنى الانقياد (الزيد، ٢٠١٠م، صفحة ١/ ٢٠٩).

وذكر الإسكافي أنَّ الهاء في (آمنتم به) تعود إلى ربِّ العالمين؛ لأنَّ الله تعالى حكم عنهم أنَّهم] قَالُوا آمنا بِرَّب العَالَمين[[الأعراف:١٢١] وهو الذي دعا إليه موسى عليه السلام. وأمَّا الهاء في (آمنتم له) فتعود إلى موسى (u) بدليل قوله تعالى:]إنَّه لَكبيرَكُم الَّذي عَلَّمَكُم السِّحْرَ[[طه:٧١] (الإسكافي، ١٩٩٠م، صفحة ٢/ ٦٧٠)، ووافقه القول ابن جماعة والسيوطي والأنصاري (جماعة، السيوطيّ، و الأنصاريّ، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ١٩٩٠م، صفحة / ١٨٣).

وهذا التوجيه لا يختلف عن قول الغرناطي من ناحية دلالة الباء على التصديق واللام على الانقياد فهما متوافقان في الأساس وإنْ اختلفا فيما بعده (الزيد، ٢٠١٠م، صفحة ١/ ٢١٠)، والحقّ أنَّ الغرناطي ذهب بالمسألة مذهباً آخر غير مذهبه، ولم يشر من قريب أو من بعيد إلى رأي الإسكافي، إذ يقول: « إنَّ الباء في قوله (آمَنْتُمْ بِهِ) واللام في (آمَنْتُمْ لَهُ) محتاج إلى كلِّ واحدة منهما من حيث إنَّ التَّصديق والانقياد معنيان يحتاج إليهما، والباء تحرز التصديق، واللام تحرز الانقياد والإذعان، فبدئ بالباء المعطية معنى التصديق وهي أخصّ بالمقصود من اللام، فاقتضى الترتيب تقديمها « (الغرناطي، ١٩٨٣م ، صفحة ١/ ٢٢٠).

واختار د. فاضل السامرائي رأي الإسكافي قائلاً: « إنَّ معنى (آمنتم به) أي: بالله تعالى، و(آمنتم له) أي: لموسى (ع) والمعنى صدقتم وأقررتم له والسيّاق يوضح ذلك « (الخضريّ، ١٩٨٩م ، صفحة / ٢١٣).

أمَّا الكرماني فاختار توجيهاً مغايراً للآيتين فهو يرى أنَّ قوله (آمنتم به) و(آمنتم له) واحد (الكرمانيّ، صفحة / ١٢٨)، وهو ما أنكره باحث معاصر بقوله: « ولا يبدو صحيحاً ما قيل من أنَّ (آمنتم به) و(آمنتم له) بمعنى واحد « (عبود، ٢٠٠٣م، صفحة / ٢٢٣).

ونجد أنَّ بعض المفسرين واللغويين (البيضاوي و آخرون، ١٩٨٨م، صفحة / ٢٨) قد نهجوا إلى ما ذهبت إليه كتب المتشابه اللفظي في وجهتهم هذه، ولاسيَّما الخطيب الإسكافي فقد سبق الجميع إلى توجيه هذه المسألة، ورأى فيها رأياً بديعاً هو الراجح عند كثير من المفسرين، إذ نجد أبا حيَّان في تفسيره يقول: « والضمير في (به) عائد على الله تعالى لقولهم (قالوا آمنا بربِّ العالمين)، وقيل: يحتمل أن يعود على (موسى) وفي (طه والشعراء) يعود في قوله (له) على (موسى) لقوله (إنَّه لكبيركم)» (الأندلسيّ، ١٩٩٢، صفحة ٤/ ٣٦٥).

وقيل في (آمنتم به) إنَّها جاءت على الإخبار، ووجه الخبر فيه أنَّه يخبرهم بإيمانهم على وجه التقريع لهم بإيمانهم، أي: فعلتم هذا الفعل الشنيع توبيخاً وتقريعاً (الزّمخشري و آخرون، ١٩٨٦م، صفحة ٤/ ٣٦٥)، والمقصود هنا من الجملة الخبرية التوبيخ؛ لأنَّ الخبر إذا لم يُقصد به فائدتُه ولا

لازمُها تولَّد منه بحسب المقام ما يناسبه، وهنا لمَّا خاطبهم الجبَّار بما فعلوا مخبراً لهم بذلك مع ظهور عدم قصد إفادة أحد الأمرين – والمقام هو المقام – أفاد التوبيخ والتقريع (الآلوسيّ، ٢٠١٠م، صفحة ٩/ ٢٩٤).

رابعاً: الإبدال بين (عن – ومن)

من مواضع ذلك ما جاء في قوله تعالى:]وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ[[المائدة:١٣]، وقال تعالى:] سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِيْنَ لَمْ يَأْتُوْكَ يُحرِّفُوْنَ الكَلِمَ مِنْ بَعْد مَوَاضِعِه[[المائدة:٤١].

قال النَّحاس (ت٣٣٨ه): «ومعنى (يُحرِّفون الكَلِمَ عن مَواضِعِه) أي: يتأولونه على تأويله» (النَّحاس، ١٩٨٨م، صفحة ٢/ ١١)، «ومعنى (مِن بَعْد مَوَاضِعِه) من بعد كونه موضوعاً في مواضعه، أو من بعد وضعه في مواضعه التي وضعه الله فيها من حيث لفظه أو من حيث معناه» (الشوكانيّ، ١٩٨٢م، صفحة ٢/ ٤١)، فيكون التَّحريف بأمرين؛ أحدهما: سوء التأويل، والآخر: التغيير والتبديل (الطبرسيّ، ٢٠٠٦م، صفحة ٣/ ٢٤٧).

وقد ذكر الإسكافي أسرار التَّشابه بين اللفظتين قائلاً: « إنَّ الآية الأولى في اليهود الذين حرَّفوا ما أنزل الله تعالى من كلامه عمَّا علموه تأويلاً له، فيكون هذا تحريفاً من جهة التأويل، وحرَّفوا أيضاً من جهة التنزيل « (الإسكافي، ١٩٩٠م، صفحة ١ / ٤٣٥). فتكون (عن) في كلام العرب موضوعةً لما عدا الشَّيء، قال سيبويه: « وأمَّا (عَنْ) فلما عدا الشَّيء، وذلك قولك: أطْعَمَهُ عن جوعٍ، جعل الجوع منصرفاً تاركاً له قد جاوزه « (سيبويه، ١٩٨٣، صفحة ٤/ ٢٢٦).

أمَّا العدول في الآية الثانية (يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِه) « فيحتمل أن يكون المراد من بعد موت النبي ليجعلوه على خلاف ما سمعوه منه، وهذا موضع (بعد) لا موضع (عن)؛ لأنَّه ليس يعدوه إلى المحرَّف إليه فينفصل عمَّا جاء عليه إلى الكذب مقارناً له، وإنَّما ذلك بعده بأزمنة كثيرة يتوقَّعون مضيّها لِيسهُل كذبهم بعدها، ويكون التقدير (سَمَّاعونَ لقومٍ آخرينَ لم يأتوك يحرِّفون الكَلِمَ من بعد مواضعه) أي: ناوين تحريفه من بعد وقوعه مواقعه وحصوله مواضعه فمحرّفين « (الإسكافي، ١٩٩٠م، صفحة ١/ ٤٣٨). وقال الكرماني: «لأَنَّ الأولى في أَوَائِل اليَهُود وَالثَّانية فيمن كانوا في زمن النَّبِي (r) أي حرَّفوها بعد أَن وَضعهَا الله موَاضعهَا وعرفوها وَعمِلُوا بهَا زَمَاناً" (الكرماني والأنصاري، د.ت، صفحة ١/ ٤٤).

أمَّا الغرناطي في توجيهه للآيتين فيرى أنَّ الآية الأولى تضمنت إخبار - الله سبحانه - لنبيه (r) مرتكب من تقدم من كفار بني إسرائيل حين أخذ عليهم الميثاق وأخبرهم أنَّه تعالى معهم مواليهم بالتأييد وتكفير السيئات، إلا أنَّهم نقضوا العهود وقتلوا الأنبياء وحرّفوا كلام الله فجعل قلوبهم قاسية. أمَّا الآية الثانية فتعريف له (r) بأحوال معاصريه منهم وكل هذا تسلية له (r) لئلا يحزنه قولهم ويشق عليه ارتكابهم وليعلم أنَّ ذلك من بعدهم جارٍ على قدر عليهم في الأزل، فلما كان هذا الإخبار بحال خلفهم والأول إخبار بحال سلفهم ناسب حال الأولين ذكر ما تناولوه بأنفسهم وباشروه بالتحريف والتبديل، فناسب الإخبار عن مرتكبهم ذكر البعدية إذ قد تقدمهم غيرهم لما ذكر، فالبعدية لمن بعد والحالية المحكية لمن قبل على ما يناسب (**الغرناطي**، ١٩٨٣م، **صفحة ١/ ١٢٢ــ ١٢٣**).

وذهب الأنصاري في معنى الآيتين وجهة مغايرة قائلاً: « إنَّ الأولى هنا وآية النساء ربما أُريد بها التحريف الأول عند نزول التوراة ونحو تحريفهم في قولهم موضع (حِطَّة) حنطة، وشبه ذلك فجاءت (عن) لذلك، والآية الثانية تحريفهم في زمن النبي (r) وتغييرهم عن المقول لهم في التوراة بغير معناه كأنَّه قال من بعد ما عملوا به واعتقدوه وتدينوا به كآية الرَّجم ونحوها، فـ(عن) لما قرب من الأمر و(بعد) لما بعد " (جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ١٩٩٠م، صفحة / ١٤٦ ـ ١٤٧).

أمَّا اللُّغويون والمفسِّرون (الحلبي، ١٩٩٤م، صفحة ٣/ ٦٩٧) فكانت لهم وقفة جادة إزاء هذين المعنيين، فمنهم من ذهب إلى أنَّ المعنيين متقاربان، يقول الزمخشريّ: « والذي يقول فيه (أمَّا عن مواضعه) فعلى ما فسرنا من إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه، وأمَّا (من بعد مواضعه) فالمعنى: أنَّه كانت له مواضع هو جدير بأن يكون فيها، فحين حرّفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقارّه، والمعنيان متقاربان « (الزَّمخشري و آخرون، ١٩٨٦م، صفحة ٢/ ٨٦).

وهو ما أكَّده الآلوسي (ت١٢٧٠ه) في بيان الفرق بين اللفظتين، إذ يرى «أنَّ (من بعد مواضعه) أدلّ على ثبوت مقارِّ الكلم واشتهارها مما هنا؛ وذلك لأنَّ الظرف يدلُّ على أنَّه بعد ما ثبت الموضعُ وتقرَّر حرَّفوه عنه، واختار ذلك هناك؛ لأنَّ فيه ما يقتضي الإتيان بالأدلِّ الأبلغ» (الآلوسيّ، ٢٠١٠م ، صفحة ٦/ ٦٤).

وكان لأبي حيَّان في توجيه الآيتين السابقتين رأيان، الأول: « والذي يظهر أنَّهما سياقان، فحيث وصفوا بشدّة التمرد والطغيان وإظهار العداوة واشترائهم الضلالة ونقض الميثاق جاء (يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عن مَوَاضِعِه) كأنَّهم حرَّفوها من أوَّل وَهْلَةٍ قبل استقرارها في مواضعها وبادروا إلى ذلك؛ ولذلك جاء أوَّلُ المائدة كهذه الآية حيث وصفهم بنقض الميثاق وقسوة القلوب، وحيث وُصِفوا باللين وترديد الحكم إلى الرسول (r) جاء (مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِه) كأنَّهم لم يبادروا إلى التحريف، بل عرض لهم التحريف بعد استقرار الكلم في مواضعها " (الأندلسيّ، ١٩٩٢، صفحة ٣/ ٢٧٤).

والرأي الثاني: «وقد يقال: إنَّهما شيئان، لكنَّه حذف هنا، وفي أوَّل المائدة (من بعد مواضعه)؛ لأنَّ قوله (عن مواضعه) يدلّ على استقرار مواضع له، وحذف في ثاني المائدة (عن مواضعه)؛ لأنَّ التحريف من بعد مواضعه يدلّ على أنَّه تحريف عن مواضعه، فالأصل يحرِّفون الكلم من بعد مواضعه، فحذف هنا البعدية، وهناك حذف عنها، كلّ ذلك توسع في العبارة، وكانت البداءة هنا بقوله (عن مواضعه)؛ لأنَّه أخصر، وفيه تنصيص باللفظ على المواضع وإشارة إلى البعدية» (الأندلسيّ، ١٩٩٢، صفحة ٣/ ٢٧٤).

وذكر باحث أنَّ ما ذهب إليه أبو حيان في رأيه هذا هو الأقرب إلى الصواب، بل هو موافق في مضمونه لما قال به علماء المتشابه اللفظي (الإسكافي، ١٩٩٠م، صفحة ١/ ٤٣٥) من قبله؛ لأنَّه أرجع سبب التَّشابه إلى السيّاق حيث ذكر الآيات المتقدِّمة والمتأخِّرة على الآيات المتشابهة، ولم يتطرق إلى الجانب النَّحوي في توجيهه، فلم يذكر الفرق بين معنى (عن) و (بعد) حيث إن (عن)

تفيد المجاوزة، و(بعد) لما تأخر زمانه **(القريشي، ١٤٣٣هـ، صفحة / ٣٦)**.

وبناءً على ما سبق ففي الآية الأولى كان استعمال حرف الجرِّ (عن)؛ وذلك لحديث الآيات عن اليهود الذين حرّفوا ما أنزل الله، وكان ذلك في حينه وليس بعد زمن، فكان ذلك مناسباً لسياق الآيات. أمَّا الآية الثانية فكان استعمال (من) ومعها بعد؛ لتوضح أنَّ الحديث عن اليهود، ولكن تحريفهم المذكور هنا لم يكن ملاصقاً أو ملازماً لحال نزول كلام الله، وإنَّما بعد أن وضعه الله تعالى، حيث كان هذا التحريف بعد أن عرفوه وعملوا به زمناً، فكان تحريفهم في هذه المرحلة أعظم وأشد؛ ولذلك كان استخدام حرف الجر (من)، ليوضح أن الأمر قد كان بعد حصول شيء، ألا وهو معرفتهم لكلام – **الله سبحانه** – ثم العمل به زمناً، فكان الحرف هنا في مكانه المناسب تماماً **(الطوبجي، صفحة / ٤٣)**.

خامساً: الإبدال بين (اللام – وعلى)

ورد ذلك في قوله تعالى:]وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا[[مريم:٦٥] وقال تعالى:]وَأمر أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا [[طه:١٣٢]. في معنى الاصطبار قال الراغب الأصفهاني: «هو تحمَّل الصَّبر بِجَهْدِك، ومنه قوله تعالى: (أولئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوْا)، أي: بما تحمَّلوا من الصَّبر في الوصول إلى مرضاة الله» (الأصفهاني، صفحة / ٢٧٤)، والاصطبار: شدَّة الأمر الشاق؛ لأنَّ صيغة الافتعال تَرِد لإفادة قوَّة الفعل (عاشور، ١٨٨٤م، صفحة ١٦/ ١٤٢).

فقد عدِّي فعل الاصطبار بـ(اللام) في سورة مريم وبـ(على) في سورة طه؛ ولذلك قال الزمخشريّ: «فإن قلتَ: لم عدّى (اصطبر) بـ(على) التي هي صلته؛ كقوله تعالى: (واصطبر عليها)؟ قلتُ: لأنَّ العبادة جُعلت بمنزلة القِرن في قولك للمحارب: اصطبر لقرنِكَ، أي: أثبت له فيما يورد عليك من شداته، أريد أنَّ العبادة تورد عليك شدائد ومشاق، فأثبت لها ولا تهن، ولا يضيِّق صدرك» (الزَّمخشري و آخرون، ١٩٨٦م، صفحة ٤/ ٣٨).

فالزمخشري يرى أنَّ الأصل في الفعل (اصطبر) أن يتعدى بالحرف (على)؛ وذلك يعني أنَّ له صلة أصلية وقد تضمن معنى الثبات، وهو ما ذهب إليه أبو حيَّان بقوله: « وعدّي (فاصطبر) بـ (اللام) على سبيل التضمين، أي: أثبت بالصبر لعبادته؛ لأنَّ العبادة تورد شدائد فأثبت لها، وأصله التعدية بـ (على) كقوله تعالى (واصطبر عليها) « (الأندلسيّ، ١٩٩٢، صفحة ٦/ ١٩٥)، فالتركيب السابق للفعل (اصطبر) مع حرف اللام يتضمن معنى (الاصطبار) مجموعاً إليه معنى الثبات الذي أشارت إليه اللام، فقد جعلت العبارة كالمقاوم الشديد البأس فيما يورد على صاحبه من الشدائد والمشاق (السعود و وآخرون، صفحة ٥/ ٢٧٤).

وقد ردد المفسرون (الحلبي، ١٩٩٤م، صفحة ٧/ ٦١٦) بعده تفسيره هذا، إلاّ أنَّ ابن عاشور يرى أنَّ العبادة مراتب كثيرة من مجاهدة النَّفس، وقد يغلب بعضها بعض النفوس فتستطيع الصبر على بعض العبادات دون بعض؛ فلذلك لما أمر الله رسوله بالصبر على العبادة كلّها وفيها أصناف جمَّة تحتاج إلى ثبات العزيمة، عدّى الفعل بـ(اللام) كما يقال: أثبت لعُدَاتك (عاشور، ١٨٨٤م، صفحة ١٦/

١٤٢ ـ ١٤٣).
وهـذا يعنـي أنَّ القرآن الكريم ينوع في اسـتعمال هذا الفعل، فمرَّة يعدّيه بـ(الـلام)، وأخرى يعدّيه بـ(علـى)، وقد يعدّيه بنفسـه نحو قوله تعالى (واصْبِرْ نَفْسَـك) [الكهف:٢٨] وربّما لا يعديه نحو قوله (اصْبِرُوا وَصَابِرُوْا) [آل عمران:٢٠٠] (عبود، ٢٠٠٣م، صفحة / ٢٢٢).

ومن نظيرها قوله تعالى:]لا يُكلِّفُ اللهُ نفسـاً إلاَّ وُسـعَهَا لها ما كَسَبَت وعليها ما اكتسبتْ([البقرة: ٢٨٦]. الكَسْـبُ: وهو يدلُّ على ابتغاءٍ وطلبٍ وإصابة، والحصول على الشيء (فارس، مقاييس اللغة، ١٩٧٩، صفحة ٥/ ١٧٩)، وقد خُصَّ الكَسْـبُ ههنا بالصالح والاكْتِسَابُ بالسَّيء (الأصفهاني، صفحة / ٤٣١)؛ لأنَّ النَّفس أمارة بالسـوء، وهي في تحصيله والحرص على سـتره أعمل وأجد، فجعلت في الشرّ مكتسبة ووصفت في باب الخير بما لا دلالة فيه على الاعتمال (الكوفي، ١٩٨٩م، صفحة / ٥٩) .

وقال الزركشيّ: « واعلم أنَّ اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثمَّ نُقِلَ إلى وزن آخر أعلى منه، فـلا بـدَّ أن يتضمَّـن من المعنى أكثر ممَّا تضمنـه أولاً؛ لأنَّ الألفاظ أدلّة على المعانـي، فإذا زِيْدَت في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة « (الزركشي، ١٩٨٨، صفحة ٣/ ٣٤)

ولمّا كانت السـيئات تُكْتَسَـبُ بعد اعتمالٍ وطلب جيء بفعل الاعتمال، قال الزمخشريّ: « فإن قلت لم خصّ الخير بالكسـب والشـرّ بالاكتسـاب؟ قلت: في الاكتسـاب اعتمال، فلما كان الشرّ ممَّا تشتهيه النَّفس وهي منجذبة إليه وأمّارة به، كانت في تحصيله أعمل وأجدّ، فجعلت لذلك مكتسـبة فيه، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال « (الزَّمخشـري و آخرون، ١٩٨٦م، صفحة ١/ ٥٢٠).

ونجد هذا التشابه بين اللفظتين عند الأنصاري، إذ يقول: « (لها ما كسبت) أي في الخير، (وعليها ما اكتسبت) أي في الشرّ، فإن قلتَ: ما الدليل على أنَّ الأوَّل في الخير، والثاني في الشرِّ ؟ قلتُ: (اللامُ) في الأول و(على) في الثاني؛ لأنَّهما يسـتعملان في ذلك عند تقارنهما كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحَاً فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ أَسَـاْءَ فَعَلَيْهَا) [فصلـت:٤٦] « (الأنصاري، ١٩٨٣، صفحة / ٧٥).

وأضاف السَّمين الحلبي: « قلتُ: وإنَّما أتى في الكسبِ بـ(اللام) وفي الاكتساب بـ(على)؛ لأنَّ اللام تقتضي المِلْكَ والخيرَ يُحبُّ ويُسَـرُّ به، فجيء معه بما يقتضي المِلْكَ؛ ولمَّا كان الشـرُّ يُحْذَرُ وهو ثَقِيلٌ ووِزْرٌ علـى صاحبـه جيء معه بـ(على) المقتضية لاسـتعلائه عليه « (الحلبـي، ١٩٩٤م، صفحة ٢/ ٦٧٠).

ومن السيِّاق القرآني للآية نجد أنَّ لفظ الاكتساب أثقل من الكسب؛ « إذ إنَّ الحسناتِ هي ممّا يُكْسَبُ دون تكلُّفٍ؛ إذ كاسـبُها على جادَّةِ أمرِ الله ورَسْـمِ شَـرْعِه، والسيئاتُ تُكْتَسَـب ببناء المبالغة؛ إذ كاسبُها يتكلَّفُ في أمرها خَرْقَ حجاب نَهْيِ الله تعالى، ويتخطاه إليها « (الأندلسيّ، ١٩٩٢، صفحة ٢/ ٣٨٢). وفسَّـر ابن عاشـور مجيء قوله (لها ما كسـبت) بـ(اللام)؛ وذلك إذا جاءت النفس بخير كان نفعه لها، وقوله (عليها ما اكتسبت) بـ (على) إذا جاءت بشرٍّ ضُرّه عليها (عاشور، ١٨٨٤م، صفحة ٣/ ١٣٧).

فالكسب كثيراً ما يحتمل الخير والشرّ، أو يقع في طلب الرزق وغيره، أمَّا الاكْتِسَابُ فلا يقع إلاّ في الآثام الغليظة، قال تعالى:] واللَّذين يُؤذونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ بِغيرِ مَا اكتَسَبُوا فَقَدِ احتَمَلُوا بُهتاناً وإثماً مُبيناً ([الأحزاب: ٥٨]، فضلاً عن ذلك أنَّ دليل التكلُّف للفعل (اكْتَسَبَ) ورد مع الأشياء الثقيلة على النَّفس، ومنه قوله :]لكلِّ امرئٍ مِنْهُمْ مَا اكتسَبَ منَ الإثمِ([النور: ١١] وقيل: إنَّ في (كسب، واكْتَسَبَ) ترغيب وترهيب أي: ثواب ما كسبت واجترحت وعملت من خير، وعليها وزر ما اكتسبت وعملت من شرٍّ (السعود و وآخرون، صفحة ١/ ٢٨٦).

« وعند استقراء الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ الاكْتِسَاب، لا نجده ورد بمعنى كَسْبِ الحسناتِ؛ ولم يعبِّر القرآن عن الحسنات والصالحات إلاّ بلفظ (كَسَبَ)، أمَّا الصيغة المزيدة (اكْتَسَبَ) فتدلُّ على بذل الجهد، فناسب استعمالها في معنى الاجتهاد في تحصيل النَّفع أو ما هو مَظِنَّة النَّفع وإنْ كان شرّاً « (العسكري، صفحة / ٤٢٣ ـ ٤٢٤) أي: أنَّ الاكتساب لا يقع إلاّ في الذنب والإثم؛ لثقل بنائه وكلفته.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى:]وأهْلَكَ إلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلَ([المؤمنون:٢٧]، وقوله تعالى:]إنَّ الَّذيْنَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَا الحُسْنَى[[الأنبياء:١٠١]. قال الزمخشريّ: «جيء بـ(على) مع سبق الضارّ، كما جيء بـ(اللام) مع سبق النافع» (الزّمخشري و آخرون، ١٩٨٦م، صفحة ٤/ ٢٢٧)، وهذا المعنى أخذ به جمع من المفسرين منهم قول أبي السعود: «وإنَّما جيء بـ(على) لكون السابق رضاً، كما جيء بـ(اللام) في قوله تعالى (إنَّ الذين سبقت لهم منا الحسنى) لكونه نافعاً» (السعود و وآخرون، صفحة ٦/ ١٣٢).

سادساً: الإبدال بين حرفي الجرّ (من – وفي)

ومنه قوله تعالى:] وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أمَّةٍ شَهِيْداً ثُمَّ لا يُؤذَنُ للَّذيْنَ كَفَرُوا ولا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ[[النحل:٨٤]، وقوله تعالى:]وَيَوْمَ نَبْعَثُ في كُلِّ أمَّةٍ شَهِيْداً عَلَيْهِم مِنْ أنفسهم وَجِئْنَا بِكَ شَهيداً على هؤلاءِ([النحل:٨٩].

لم يختلف المفسرون في تفسير معنى الآية الأولى على أنَّ المراد بها الأنبياء (عليهم السلام)، والخطاب في ذلك للرسول (r) والإشارة بهؤلاء إلى أمته فيشهد لهم بالإيمان والطاعة وعليهم بالكفر والعصيان (الزّمخشري و آخرون، ١٩٨٦م، صفحة ٣/ ٤٦٠)، ولم يستبعد أن يكون المراد بهم ما يشمل الحاضرين وقت النزول وغيرهم إلى يوم القيامة؛ فإنَّ أعمال أمته تعرض عليه بعد موته (الآلوسيّ، ٢٠١٠م ، صفحة ١٤/ ٢٥٩).

أمَّا سبب الاختلاف في الآية الثانية ففي ذلك يقول الغرناطي: «ولما كان قوله تعالى:]وَجِئْنَا بِكَ شَهيداً على هؤلاء(حاصلاً منه تعقيبه (u) وتحقيق كونه الشهيد على أمته، وكونه من أنفسها ورد ما قبله محرراً فيه ذلك الغرض من تحقيق ذلك الحكم، من أن كل نبي قبله إنَّما كان من أنفس القوم المرسل إليهم ذلك الرسول لا من غيرهم، وهو الشهيد عليهم، وحقق ذلك في الثانية بما يحرزه حرف الوعاء (في) ويقتضيه من استحكام الإخبار بكون الشهيد من نفس الأمة؛ لأنَّ قوله (من كل أمة) يحتمل أن يراد به أن يكون منهم في مذهب أو جامع بينهم وبينه، من غير أن يكون من أنفسهم، أمَّا قوله (في كل

أمة) فأنصَّ في الاتصال واللزوق، لاسـيَّما بما اتبع به من قوله (من أنفسـهم)...“ (الغرناطي، ١٩٨٣م ، صفحة ٣/ ٣٠٧).

وإلى مثل هذا ذهب ابن عاشـور بقوله: «وعُدّي فعل (نبعث) هنا بحرف (في)، وعُدّي نظيره في الجملة السابقة بحرف (من) ليحصل التفنن بين المكررين تجديداً لنشاط السامعين، وزيد في هذه الجملة أنَّ الشـهيد يكون من أنفسـهم زيادة في التذكير بأنَّ شـهادة الرّسل على الأمم شهادة لا مطعن لهم فيها؛ لأنَّها شـهود من قومهم لا يجد المشـهود عليهم فيها مسـاغاً للطعن» (عاشـور، ١٨٨٤م، صفحة ١٤/ ٢٥٠).

وعودةً إلى سياق الآية الأولى نجد أنَّ سياقها يتحدث عن تعدد النعم من الله على عباده، وأن القليل مـن الناس من يشـكر النعم، وكثير منهم من يعرف نعم الله ويحسـها ويتقلب فيهـا ولكنه ينكرها لقوله تعالى: (يَعْرِفُوْنَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأكثَرُهُمْ الكَافِرُونَ) [النحل:٨٣] ولا شك أنَّ لهذه الآية ارتباطاً بالآية التي بعدها، ووجه الارتباط بينهما أن معرفة النعم ونكرانها من الكافرين طبيعة لهم، تموت معهم وتحشر معهم، أمَّا الآية الثانية فجاءت بحرف الجر (في) مع ذكر شهادة النبي على الخلق جميعاً (وَجِئْنَا بِكَ شَـهِيْداً على هَؤلاءِ)، فتبين ذلك مناسـبة كل حرف بمكان وروده واختصاصه بموضعه وقد تجلَّت بذلك بلاغة الخطاب القرآني وجلالة عظمته (توامة، ٢٠١٥، صفحة/ ٩٢).

فضـلاً عـن ذلك أنَّ الحرفين (من) و(في) عنـد النَّحويين القدماء والمتأخرين يشـتركان في معنى الظرفية والسـببية؛ لذلك جاء اختيار الحرف المناسـب للمكان المناسب (المراديّ، ١٩٩٢م، صفحة / ٣١٤).

الخاتمـة

وفيما يأتي أهم النتائج التي توصل إليها البحث وهي على النحو الآتي:

١. إنَّ الإبدال في حروف الجرِّ ولا سيِّما في القرآن الكريم فرع من فروع المتشابه، ودراسته لا تخلو من دلالات خاصَّة، ودراسته تفتح آفاقاً جديدة لدراسة السياق في الحقل القرآني.

٢. كشـف البحث أنَّ بعض المفسـرين واللُّغويين قد نهجوا إلى ما ذهبت إليه كتب المتشابه اللفظي في وجهتهم هذه، ولاسيَّما الخطيب الإسكافي فقد سبق الجميع إلى توجيه هذه المسألة، ورأى فيها رأياً بديعاً هو الراجح عند كثير من المفسرين.

٣. يعدُّ كتاب درَّة التنزيل وغرَّة التأويل من أقدم الكتب التي وجهت الآيات المتشابهة واعتمد عليه كلّ الذين صنفوا بعده، سواء أشاروا إليه كالكرماني وابن الزبير، أم أغفلوا ذكره كابن جماعة والأنصاري وغيرهم.

٤. يؤثـر السّـياق تأثيـراً واضحاً في فهم وإدراك النصـوص القرآنية، فهو يحـدد دلالة الحرف غاية التحديد؛ إذ كثيراً ما نرى تعبيرين يتشـابهان إلاّ في لفظ واحد، وإذا ما دققنا النظر وجدنا أنَّ كلّ لفظة اختيرت بحسب السمة التعبيرية لهذا السياق أو ذاك.

٥. كان لأبـي حيّـان في بعض المواضع توجيهـان أو أكثر للآيتين، على خلاف غيره من المفسـرين

اللغويين، وكان رأيه هو الأقرب إلى الصواب، بل هو موافق في مضمونه لما قال به علماء التشابه اللفظي.

٦. كشف البحث جهود المفسرين اللغويين في توجيه الآيات المتشابهة واختلاف حروف الجرّ فيها، كالزمخشري والبيضاوي وابن عاشور والآلوسي وغيرهم.

أنَّ أسلوب الإبدال قدَّم لنا منهجاً متكاملاً في الدراسات السياقية، وذلك من خلال الترابط المكين بين الحروف والكلمات وسياقاتها مثل (سياق الآية، وسياق الموضوع، وسياق الموضوع، وسياق الرتبة...)

المصادر والمراجع

١. إبراهيم السامرائيّ. (٢٠٠٦م). التعبير القرآني. عمان: دار عمّار.

٢. إبراهيم عبد العزيز الزيد. (٢٠١٠م). البلاغة القرآنية في الآيات المتشابهة. الرياض: دار كنوز للنشر والتوزيع.

٣. ابن جماعة. (١٩٩٠م). كشف المعاني في المتشابه من المثاني. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.

٤. ابن جماعة، السيوطيّ، و الأنصاريّ. (١٩٩٠م). كشف المعاني في المتشابه من المثاني. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.

٥. ابن عاشور. (١٨٨٤م). التحرير والتنوير. تونس: السّداد التونسية للنشر والتوزيع.

٦. ابن فارس. (١٩٩٧م). الصاحبي في فقه اللغة. بيروت: دار الكتب العلمية.

٧. ابن فارس. (١٩٧٩). مقاييس اللغة. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٨. ابن منظور. لسان العرب. بيروت: دار صادر.

٩. أبو السعود، و وآخرون. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. بيروت: دار التراث العربي.

١٠. أبو حيّان الأندلسيّ. (١٩٩٢). البحر المحيط. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

١١. أبو هلال العسكري. الفروق اللغوية. القاهرة: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع.

١٢. الإسكافي. (١٩٩٠م). درة التنزيل وغرة التأويل. السعودية: مكتبة الملك فهد الوطنية.

١٣. الآلوسيّ. (٢٠١٠م). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع.

١٤. الأنصاري. (١٩٨٣). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن. بيروت: دار القرآن الكريم.

١٥. البيضاوي، و آخرون. (١٩٨٨م). أنوار التنزيل وأسرار التأويل. بيروت: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع.

١٦. الجرجاني. التعريفات. دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

١٧. الراغب الأصفهاني. المفردات في غريب القرآن. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.

١٨. الزجّاجي. (١٩٨٦). حروف المعاني. بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

١٩. الزركشي. (١٩٨٨). البرهان في علوم القرآن. بيروت: دار الجيل.

٢٠. الزَّمخشري، و آخرون. (١٩٨٦م). الكشاف. دار الكتاب العربي.
٢١. السامرائيّ. (٢٠٠٠م). معاني النحو. عمّان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٢. السمين الحلبي. (١٩٩٤م). الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (المجلد ط١). بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٣. السيوطيّ. (١٩٩٤م). قطف الأزهار في كشف الأسرار. قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
٢٤. السيوطي. (١٩٨٨م). معترك الأقران في إعجاز القرآن. بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٥. الشاطبي. (٢٠٠٧م). المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية. جامعة أمّ القرى: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي.
٢٦. الشوكانيّ. (١٩٨٢م). فتح القدير. بيروت: دار الفكر للنشر والتوزيع.
٢٧. الطبرسيّ. (٢٠٠٦م). مجمع البيان في تفسير القرآن. بيروت: دار العلوم للنشر والتوزيع.
٢٨. الغرناطي. (١٩٨٣م). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل. دار الغرب الإسلامي.
٢٩. الكرمانيّ. أسرار التكرار في القرآن. دار الفضيلة للنشر والتوزيع.
٣٠. الكرماني، و الأنصاري. (د.ت). البرهان في توجيه متشابه القرآن. القاهرة: مركز الكتاب للنشر والتوزيع.
٣١. المراديّ. (١٩٩٢م). الجنّى الداني في حروف المعاني. بيروت: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع.
٣٢. النَّحاس. (١٩٨٨م). إعراب القرآن. بيروت: عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربية.
٣٣. سيبويه. (١٩٨٣). الكتاب. مصر: مكتبة الخانجي.
٣٤. شلتاغ عبود. (٢٠٠٣م). أسرار التّشابه الأسلوبيّ في القرآن الكريم. بيروت: دار المحجّة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع.
٣٥. صالح الششري. (٢٠٠١م). المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية. السعودية: جامعة أُ القرى.
٣٦. عاشور توامة. (٢٠١٥). بلاغة الخطاب القرآني وأثرها في المتلقي. الجزائر.
٣٧. قاسمي محمد. (٢٠١٥م). بلاغة الإبدال في الخطاب القرآني. جامعة وهران: ماجستير، بإشراف ميلود منصوري.
٣٨. محمد أبو موسى. (١٩٨٧م). دلالات التراكيب دراسة بلاغية. القاهرة: مكتبة وهبة.
٣٩. محمد الخضريّ. (١٩٨٩م). من أسرار حروف الجرّ في الذكر الحكيم. القاهرة: مكتبة وهبة للنشر والتوزيع
٤٠. مريم بنت عبدالله القريشي. (١٤٣٣هـ). بلاغة المتشابه اللفظي في تفسير البحر المحيط. السعودية: جامعة أمّ القرى.
٤١. منال الطوبجي. المتشابهات من كلمات القرآن. دار ابن الجوزي.
٤٢. نجاة الكوفي. (١٩٨٩م). أبنية الأفعال دراسة لغوية قرآنية. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.